استئصال اللغة الفرنسية في الجزائر و تداعياتها

بقلم: جعفر مسعودي

دعونا نقول الحقيقة بكل موضوعية، بعيدا عن أي تأثير إيديولوجي: المفرنسون هم غالبا من يمثلون النخبة الحقيقية في الجزائر. فهم أكثر انفتاحا و وعيا و أشرس نضالا من أجل مبادئ الديموقراطية. و عليه، فهم الأكثر عرضة للمضايقات من طرف الحكومات المتتالية و من ولاها من ذوي الفكر الأحادي المتحجر من بين العروبي-إسلامويين. هذا ما يفسّر سعي حكّامنا للقضاء على اللغة الفرنسية في الجزائر بكل الوسائل و بأي ثمن. فلم يكن إذن أبدا ما يُروَّج له من أكاذيب مفادها أن الحكومة تسعى لاستبدال الفرنسية بالإنجليزية بدافع مصلحة أبناء الشعب. و إلا، لماذا يتم تدريس أبناء المسؤولين في المدرسة الفرنسية بالجزائر و لماذا يتم ارسالهم فيما بعد إلى الجامعات الغربية، بما فيها الفرنسية؟

و لتهيئة الظروف للقضاء على الفرنسية، لجأ حكّامنا إلى الوطنية المزيّفة لنشر خطاب الكراهية تجاه كل ما هو فرنسي. فأصبح الجزائري، خاصة في المناطق المستعربة، ينظر إلى اللغة الفرنسية ليس كلغة التواصل كسائر اللغات، و إنما كأثر من آثار الاستعمار التي يجب على كل جزائري متشبع بالوطنية أن يعمل على محوها. و بسبب هذا الخطاب، تمّ اهمال هذه اللغة من طرف غالبية الجزائريين إلى أن وصل فيها مستوى التلاميذ إلى الحضيض. و كنتيجة حتمية أخرى مُرضية للتيار العروبي الإسلاموي و للحكومة على حد سواء، التقلّص الرهيب لمقروئية الجرائد الصادرة بالفرنسية، مما جعل الكثير من العناوين تتخبط في المديونية لتدني المبيعات، بل و وصل الحد ببعضها إلى الاختفاء مثل ما حصل مؤخرا لجريدة "ليبيرتي".

و كخطوة أخرى لتدمير لغة موليير في الجزائر، قامت وزارة التربية في عهد أبو بكر بن بوزيد بإدخال تعديلات هدامة في المناهج و البرامج الخاصة بتعليمها. بحيث تم حذف كل ما له علاقة بقواعد اللغة و التركيز على الدراسة الأدبية و النمطية للنصوص، مما جعل مستوى التلاميذ يتدنى بسرعة حتى في معقل الفرانكفونية التي هي بلاد القبائل، إلى حد أن حتى الطلبة الجامعيين أصبحوا لا يتقنون لا الكتابة و لا التعبير بالفرنسية.

و كما لو كانت كل تلك الخطوات الهدامة غير كافية، ها هي حكومتنا تقرر ادراج اللغة الإنجليزية في الابتدائي لمزاحمة اللغة الفرنسية، أو بالأحرى لإزاحتها من مكانها، زاعمة كما يزعم الكثير أن الفرنسية هي سبب تخلفنا و أن الإنجليزية سترتقي بنا بسرعة البرق إلى مصف الدول المتقدمة، متجاهلة أن الكثير من الدول الإفريقية مثل مصر و نيجيريا قد تبنت الإنجليزية منذ عقود و لم تحقق أي تقدم.

لكن لماذا كل هذا الإصرار من الحكومة الجزائرية و حلفائها الطبيعيين من العروبيين الإسلامويين على استئصال اللغة الفرنسية في الجزائر؟ فكما سبق و أن قلناه، نيتها في ذلك ليست بريئة. فبعد القضاء على عزيمة الجزائريين في التعلم الفرنسية في المناطق المستعربة، أصبح التركيز حاليا كله على بلاد القبائل، آخر معقل للفرنسية. و الغرض هو الوصول إلى مستوى الصفر مع الأجيال الحالية و القادمة بغية خلق قطيعة بين هذه الأجيال و أجيال ما بين الأربعينيات و الثمانينيات المفرنسة الحاملة للوعي و الثقافة النضالية. فعندما يتحقق هذا المبتغى، يكون الحكّام قد تمكّنوا من ترويض كامل الجزائريين ليتربّعوا وحدهم دون منازع و لا مشاغب على العرش و ما يورثه لهم من الامتيازات و الخيرات.

و قبل أن نختم هذا المقال، دعونا نذكّركم بالأضرار الأخرى التي ستتكبدها الجزائر جرّاء هذا القرار الشعبوي غير المسؤول. أولها يتعلّق بالإطارات و الموظفين المفرنسين. فإن تمّ تسريحهم دون مقابل، فهم مظلومين؛ و إن تمّ إعادة تكوينهم، فالدولة ستخسر أموالا طائلة كانت ستُستثمر في مشاريع تنموية أخرى. ثانيها يتعلّق بخريجي الجامعات الحاليين الذين هم في طور التكوين بالفرنسية. فهل سيكون مصيرهم البطالة و التشرد جراء عدم تطابق شهاداتهم بالمناصب المتوفّرة أو سيعاد تكوينهم لهدر المزيد من الأموال؟ ثالثها، يتعلّق بالموروث الثقافي الجزائري المفرنس. فكل ما كتبه الجزائريون و غير الجزائريين بالفرنسية مستحيل أن يُترجم و يُعاد نشره كله لتوريثه للأجيال المستعربة بسبب ما يستلزم ذلك من الأموال الطائلة، مما يعني أنه سيتعرّض حتما للإهمال و النسيان. و أخرها يتعلّق بالجالية الجزائرية بالمهجر. فكيف مثلا سيُتعامل مع المهاجرين الجزائريين إداريا عند اضطرارهم إلى استخراج الوثائق بالفرنسية و الموظفين كلهم معرّبون؟

لهذا، يجب على كل مثقف نزيه، مستعربا كـان أو مفرنسـا، أي يقـف في وجـه هـذا المشـروع الـذي لا يخـدم الوطن و إنما أعدائه. خاصة و أن المشروع هـذا مصـحوب، بـل و مـدعوم، بـأخر يحمـل في طياتـه اسـتحمار الشعب بواسطة الاستغلال الايديولوجي للدين عبر المساجد و الزوايا و الجمعيات الدينية و حتى المدرسة.